السبحة

الأب بطرس حداد – الموصل

التسبيح في اللغة: الدعاء والصلاة، ويعني قول المؤمن سبحان الله او سبحانك اللهم، تمجيداً وتعظيماً وشكراً واستغفاراً. ونحن نردد في آخر صلواتنا الطقسية "المجد" التي تؤدي المعنى نفسه، وفي المزامير يتردد التسبيح والتهليل كما في المزمور الاخير ١٥٠ الذي نرتله في مختلف احتفالاتنا المهمة "سبحوا الرب في قدسه". يقال: السبحة (بضم السين) والمسبحة (بكسر الميم). اما المسبحة أو السباحة فهي الاصبع التي تلي الإبهام (أي السبابة) لأنه يشار بها عند التسبيح (لسان العرب: مادة سبح). فلما كانت الصلوات القصيرة أي التسابيح والأدعية والنوافذ، وهي الاوراد في التعبير الإسلامي، التي تتكرر لسهولة تعلمها، تحتاج الى واسطة للعد للتأكد من الدقة، وخوفاً من الخطأ عند النفوس التقية، فقد استعان الناس في أول الأمر بالأصابع، وعندما فاق عدد التسابيح عدد أصابع اليدين بأضعاف، إستعانوا بالحصى او النوى وبالخرز. ويذكر في كتب التراث العربي انه كانت ساحات المساجد مفروشة بالحصى، فيلتقط المصلون حفنة منها ويسبحون الله، لكنهم أحياناً كانوا يضربون بها الخطباء لا بل الولاة، إذا سمعوا منهم ما لا يرضيهم (تاريخ الطبري ٥: ٢٣٤ و ٢٣٥، ٦: ٢٠٦، العقد الفريد لابن عبد ربه ٨:٤). اورد ابو بكر بن داؤد في "التحفة" ان ابا الدرداء كان يسبح كل يوم مائة الف تسبيحة وهذا دليل انه كان يستعمل السبحة اذ يبعد ويتعذر ان يضبط مثل هذا العدد بغيرها.

إستعملت الديانات المختلفة السبحة (او المسبحة) في العبادات، وقد عثر في نينوى على نحت يرجع الى القرن التاسع ق.م. تظهر فيه امرأتان واقفتان امام شجرة مقدسة في حالة الصلاة واليد اليمنى مرتفعة الى الاعلى في حالة تضرع وتوسل، بينما تظهر اليسرى حاملة نوعاً من سبحة الصلاة.

إستعمل بعضهم خيطاً جعلوا فيه عقداً على عدد التسابيح المطلوب تلاوتها، وقد يربط الخيط من الطرفين فيصبح على شكل إكليل، ومن هنا كلمة إكليل الورود التي تطلق على قلادة من ورد الياسمين يطوقون بها أعناق الضيوف المتميزين ترحيباً بهم، كما في الهند وبلدان الشرق الاقصى.

فالمسبحة مجموعة من خرز متساوية بالحجم والشكل واللون، إنتظمت الى بعضها في خيط من خلال ثقوب في وسطها، ثم يجتمع طرفا الخيط، ليمرا معا من خلال الشاهول ويعقدا في وسط كركوشة من خيوط الإبريسم الملون.

وكانت السبحة من الخرز او الزجاج او من نوى الأثمار كالتمر في العراق والحجاز، والزيتون في فلسطين، وحبة الخضراء (البطم) في شمال العراق. وتفنن بعضهم فاستعملوا الاحجار الكريمة بانواعها والفضة والذهب. فهناك سبح رخيصة الثمن، وهناك اخرى ثمينة باهظة الثمن.

السبح في مختلف الديانات

كانت السبحة عند البراهمة الهنود متكونة من ٥٠ خرزة على عدد حروف اللغة السنسكريتية، وهي عند البوذيين في الهند والتيبت ١٠٨ خرزات فهذا عدد مقدس في تراثهم الديني. وعند اليهود مئة حبة ولهذا سموها " ماه بركوت " أي " المئة بركة".

وعند المسيحيين الكاثوليك ٦٠ خرزة وهي التي نطلق عليها " وردية العذراء"، وعند المسلمين ٩٩ خرزة بعدد أسماء الله الحسنى. اما سبح الصوفية فقوامها ١٠٠٠ حبةً عادةً، وسبحة التسبيح قوامها ١٠١ خرزة.

سبحة الصلاة: الوردية

كانت سبحة الصلاة – في اول امرها – تكرار الصلاة الربية فقط، ولذلك اطلق عليها اسم " سبحة الأبانا"، وبقي هذا الاسم مستعملاً حتى بعد أن أُدخل عليها السلام الملائكي، الذي كان في اول عهده يتوقف عند كلمة ((ثمرة بطنك)) (لوقا ٤٢/١)، وذلك في نحو القرن ١٢، وقد حث آباء الكنيسة جماعاتهم على رفع وترديد مثل هذه الصلاة. وكان عدد كبير من المؤمنين او الرهبان يرددون هذه الصلاة بأعداد كبيرة يوميا، فالعدد لم يكن محدداً بل حسب تقوى الافراد وبالطريقة التي يرتاحون إليها. وفي القرن ١٣ ثبت الناس على العدد ١٥٠، حتى أطلق عليها اسم "مزامير العذراء" لانها بعدد مزامير داؤد النبي، وكل قسم مكون من ٥٠، وهذه الأقسام كما هو معروف الى اليوم: الفرح والحزن والمجد. وفي القرن ١٤ ادخلت ١٥ أبانا على ١٥٠ سلام ثم تدريجياً التأملات التي تسبق كل سر، فنقول: السر الاول: " نتأمل ..." وفي القرن ١٧ أدخلت المجدلة بعد كل سر أي : " المجد للآب.."، وألحقت بها تدريجياً طلبة العذراء: " كريالیسون" التي جمعت مختلف الصفات اللائقة بمريم: يا عذرا العذارى، يا أم المسيح... حنونة، امينة، قادرة - ، ورموز مريمية مستقاة من الكتاب المقدس: برج داؤد، برج العاج، تابوت العهد... الخ.

إن كثيرين من الأتقياء، سواء كانوا من أبناء الاكليروس أم الشعب، إتخذوا مسبحة الوردية واسطة للتأمل والصلاة، وكانت في اول امرها من اجل اولئك الذين يجهلون القراءة، فما كان باستطاعتهم الإشتراك بالصلاة الجماعية في الخورس مع سائر الرهبان او الراهبات في الأديار، فهي صلاة بسيطة مفهومة، ثم اصبحت واسطة صلاة للجميع. واتخذها بعض الرهبان ضمن مكملات الزي الخاص بهم كالدومنيكان مثلاً، اذ شدوها بمناطقهم، وعندنا الراهبات الكلدانيات " بنات مريم" وآخرون كثيرون. ويعتز المؤمنون بحمل مسبحة الوردية معهم دائماً ويتلونها بلذة وشوق وترافقهم في رواحهم ومجيئهم، وايضاً في رحلتهم الأخيرة اذ تدفن معهم.

ينسب البعض أصل الوردية الى القديس عبد الاحد (سان دومنيك) وينسبون الى أبنائه الروحيين، اي الدومنيكان، نشر هذه العبادة بين المؤمنين، ولا صحة لهذا القول تاريخيا، لكن بالتأكيد ان لهؤلاء الاباء تعلقاً شديداً بالوردية، واهتماماً خاصاً بنشرها بين المؤمنين.

وعلى إسم الوردية شيدت كنائس كثيرة، منها كنيسة سلطانة الوردية في الكرادة خارج (بغداد) وتأسست رهبانيات وأخويات في العالم اجمع على اسم الوردية ايضاً.

سبحة المتصوفة

وكما إن المسبحة منتشرة عند رهباننا وراهباتنا، وهي من متممات أزياء بعضهم، فهي ايضاً من متممات شعارات المتصوفة والدراويش عند المسلمين، اذ يحمل السبحة ذات الألف خرزة، إضافة الى الكشكول والفأس وما الى ذلك. وللسبحة عند هؤلاء مدلولات باطنية فهي تضبط الإيقاع والتكرار وتشكل رمزاً مبسطاً للتسامي الروحي من حيث الترابط والتضامن.

سبحة التسلية

الى جانب سبحة الصلاة المنتشرة عند مختلف الأقوام والأديان، هناك سبحة شعبية منتشرة في أوساطنا الشرقية قوامها ٣٣ خرزة تنتهي بقطعة يقال لها "الإمامية" وهي على شكل مئذية، ويتناسب حجمها مع حجم خرز المسبحة، وتسمى ايضاً الشاهول. وبين كل ١١ خرزة هناك خرزة تختلف حجماً يقال لها " الأذن " ويسميها البعض "الشاهودة"، واخيراً هناك البسكولة او الكركوشة وهي خيوط إبريسم تتوج الإمامية، وقد تُصنع من المعادن كالفضة والنحاس لا بل من الذهب ايضاً.

يحمل الرجال هذه المسبحة للتسلية، واحياناً النساء ايضاً، ولها هواة يجمعون انواعاً منها ويغالون في اثمانها لنفاسة خرزها، وصفاء الوانها وجودة صنعها. يُذكر أن سبحة الست زبيدة كانت من يواقيت رمانية كالبنادق محزوزة بمثل شرائح البطيخ (البيروني: الجواهر ص ٥٨) وقيل انها اشترتها بخمسين الف دينار (البصائر والذخائر: المجلد الاول/ القسم ٣ص ١٤٥-١٤٦). وكان للمقتدر العباسي سبحة قدرت بمائة الف دينار، ومن امثال هؤلاء كثيرون في مختلف العصور كالسبح التي كان يستعملها سلاطين آل عثمان ونراها في متحف اسطنبول.

وعلى ذكر السبح الثمينة نذكر بعضها:

١. **الزمرد** ولونه اخضر غامق ويستخرج من مناجم في الهند. واذا مال لونه الى الزرقة سموه زبرجداً، ومثل هذه السبحات ثمينة جداً.

٢. **الفيروز** وهو الشذر: ومنه الاخضر والازرق المشجر والصافي ويطلق عليه اسم حجر الملوك او حجر السعادة وهو ثمين ونادر.

٣. **الكهرمان** ويسمى عندنا الشيح او الكهرب للخاصية الكامنة فيه لاجتذاب الاشياء الدقيقة، كما يفعل المغناطيس بالحديد، ولونه اصفر برتقالي واذا مر عليه الزمن صار لونه برتقالياً غامقاً. ويُقلد هذا النوع بطرق كيميائية فيقال له "عطش".

وهناك احجار كريمة كالياقوت والعقيق واللؤلؤ الطبيعي والعاج، ثم سبح الصدف وهو محار البحر واشتهر اهل فلسطين بانتاج هذا النوع، فيعود زوار القدس الشريف وهم يحملون بعضاً منها الى اصدقائهم، بينما يحمل حجاج البيت الحرام مسبحة اليسر الى اصدقائهم.

وأرخص الانواع هي السبح البلاستيكية وهي احجام والوان مختلفة ومتنوعة.

وللسبح في الشرق – وعندنا في بغداد – محلات مختصة بها، تبيع وتشتري وتقيم وتصلح انواع السبح من خرز الزجاج البسيط الى الانواع الثمينة النادرة، كالمرجان والبايزهر والعاج والصندلوس والؤلؤ واليسر.

وقد رأيت في بيوت بعض الناس المترفين مجموعة كبيرة من السبح، من مختلف الالوان والاحجام والاثمان، ضمن معرض عائلي مغلق باكثر من قفل!.... ولا تفتح هذه الخزانة إلا أمام صديق معجب وامين!.... او لتبادل السبح عند تكرارها في الخزنة.

ومن عادة بعض الرجال إستلاب مسبحة الصديق او القريب، ويعتبرون ذلك شطارة وحلالاً! ولذلك فالهواة الحريصون على سبحهم الثمينة والنادرة لا يستعملونها عند حضورهم لقاءات الخلان خوفاً عليها، ولا يعرضونها بسهولة امام كل من هب ودب!

قالوا في الامثلة الشعبية: " جوا المسبحة مذبحة" كناية عن الشرير الذي يتظاهر بالتقوى امام الناس. وقالوا اخيراً: " كملت السبحة " عندما يتم اجتماع الأصدقاء بقدوم آخر المدعوين.